علي الطنطاوي
بين الإبداع والتنظير

يمثل التراث الأدبي الذي خلفه الشيخ الأديب علي الطنطاوي تطبيقاً عملياً بالغ الروعة على نظرية الأدب الإسلامي في معظم فنون الأدب، حيث كتب المقالة والقصة والمسرحية وأدب الرحلات والتراجم التاريخية.. وغيرها، فكانت قضية الحرية والالتزام هي محور عقل هذا الأديب وقلمه طوال أكثر من سبعين سنة قضاها في الكتابة تنظيراً وإبداعاً.

ولما كانت أهم الملاحظات التي يؤكد عليها النقاد في قضية الأدب الإسلامي هي حاجتنا إلى مسلمين يعيشون الإسلام في حسهم حقيقة واقعة، ويتلقون الحياة كلها بحس إسلامي، ومن خلال التصور الإسلامي، فنانين في ذات الوقت، يعبرون عن هذه الحقيقة الواقعة في حسهم بصورة جميلة موحية، تتحقق فيها شروط الفن ومقاييس الجمال التعبيري[1].

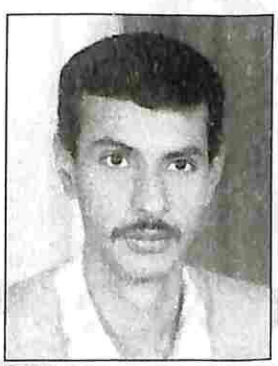

بقلم: ياسر محمد غريب
مصر

أقول: لما كانت هذه هي أهم ما يؤكد عليه نقاد الأدب الإسلامي، فإن الطنطاوي يعد نموذجاً تطبيقياً للأديب الإسلامي، كما يعد أدبه صورة ناجحة إلى أبعد حد من صور الأدب الإسلامي المنشود.

فلقد كان اسم علي الطنطاوي فيما بين عقود الثلاثينيات والخمسينيات أحد ألمع الأسماء الأدبية في دنيا العروبة، فمنذ شبابه الباكر، كان علي الطنطاوي قد اختط بقلمه مكانة علية بين رموز الأدب العربي الكبرى من أمثال الرافعي والزيات والمازني ومحمود محمد شاكر وزكي مبارك.. وغيرهم، ونشرت إنتاجه الرفيع كبرى المجلات الأدبية والثقافية شأن «الفتح» و«الزهراء» و«الرسالة» و«الثقافة» و«المسلمون» وغيرها.

وفي كل تلك الصحائف نثر الطنطاوي أجمل فنون لغة الضاد، حيث انسابت فصوله عذبة طلية فاتنة في أطوائها السحر الحلال.. وياله من نثر كان الأقرب إلى لغة الشعر، أو قل إنه الشعر وإن لم يوزن بأوزان الخليل[2].

بدأ الطنطاوي أديباً ملتزماً، حيث أنتج الهيثميات ورسائل سيف الإسلام وهو في العشرينيات من عمره بإحساس إسلامي عميق، هذا الإحساس الذي لم يتغير لحظة واحدة حتى رحل إلى رحمة الله، وإن كان

أسلوبه وقيمه التعبيرية والفنية قد تطورت - ولاشك - بشكل كبير وواضح جعله على قدم المساواة مع رواد الجيل الذهبي من كتاب «الرسالة».

الاتجاه إلى التاريخ :

ولم يكن غريباً على علي الطنطاوي أن يتجه إلى الكتابات التاريخية مبكراً، ولئن كان قد قرأ في التاريخ كل هذه الكتب المطولة، فإن أكثر ما كان يحب أن يظهره منها للناس هو سيرة عباقرة الإسلام ومواقف المجد والعظمة في تاريخه، وهو ما صنعه حين وضع مناهج الكليات الشرعية في الشام، فاستبدل بالتاريخ السياسي وأخبار الوقائع والمنازعات والفتن تراجمَ الأبطال والعظماء من المسلمين[٣].

وفي كتاباته التاريخية يصل الطنطاوي إلى أعلى درجات الوعي بمهمة الأديب المسلم في الحياة، خاصة ما يتعلق بضرورة نقل التجارب الخالدة للمتلقين حيث يطرح جانباً تلك الكتابات التاريخية المألوفة التي حصرت نفسها واختزلت تاريخ أمتها في أخبار الملوك والقصور، وعن ذلك يقول: «ولست أعني التاريخ السياسي وحده، تاريخ القصور والملوك، بل أعني التاريخ العلمي أولاً، تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم لله مجاهدين في ميادين الطروس، بأسنة الأقلام، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم، وغرائزهم واطرحوا رغبات الغنى والجاه، وكل ما يتزاحم عليه الناس، واستهانوا في سبيله بكل صعب، حتى إنهم كانوا يرحلون على الإبل أربعين ليلة، من مشرق الأرض إلى مغربها، إلى بغداد أو الشام أو الحجاز، في طلب مسألة مفردة أو حديث واحد، أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل القرون الآتيات، فسارت «البشرية» في طريق الحضارة على ضوئها»[٤].

وهكذا نرى «أن الأديب الإسلامي لا يستطيع أن يخاصم العصر أو يهرب منه إلى عصور قديمة، والأدب الإسلامي حينما يتناول موضوعاً تاريخياً «قديماً» لا يهرب في الواقع من مجابهة المجتمع أو الحياة الحديثة، إنه يتناول التاريخ وعينه على الحاضر، ففي التاريخ كنوز ثمينة من التجارب الإنسانية العامة - الشاملة التي لا تموت بمرور السنين»[٥].

وإن للتوجيه نحو التاريخ دوراً عظيماً في عملية التربية الإبداعية، هذا الدور يتمثل في أن التاريخ يعكس البيئة التي خرج فيها الإسلام، وقدم النماذج المشرقة التي كان الأدب الإسلامي في فترة من فترات تطوره - منذ بدايات الدعوة إليه في القرن الماضي - يحتاج إليها لتكون لديه رصيداً وجدانياً للأديب والمتلقي على السواء للوصول بعد ذلك في مرحلة تالية إلى أدب إسلامي عميق الجذور.

علي الطنطاوي وقضايا الأمة :

ولم يكن اتجاه الطنطاوي نحو التاريخ بالذي يجعله يستغرق في الماضي على حساب الحاضر، بل كان للسان الطنطاوي الخطيب ولقلم الطنطاوي الأديب دور كبير في استنهاض الهمم وشحذ النفوس ضد الأخطار التي أحاطت بالأمة منذ مطلع القرن العشرين، ولم يكن حبه للشام ليجعله أسيراً لتاريخه وحده، فكما تغنى وأشاد ببطولات المجاهدين، في ميسلون أشاد بالفدائيين في قناة السويس، وبشهداء الجزائر وبانتفاضة فلسطين وغيرها..

ولم يكن قلمه موجهاً فقط للمجاهدين على أرض المعارك بل كان يصرخ في الكتاب والمفكرين والأدباء لكي يوجهوا أقلامهم وأدبهم نحو قضايا أمتهم للتعبير عن آمالها وآلامها وهو يتساءل عن الأقلام التي غابت عن خوض هذه المعمعة: «أين تلك الأقلام تعرف هذا الشعب بنفسه، وتتلو عليه أمجاد أمسه، وتذكره أنه لم يخلق ليذل ويخنع، وإنما خلق ليعز ويحكم، وأن الله ما برأه من طينة العبيد، بل سواه من جذم الصيد الأماجيد، وأنه أثبت من هؤلاء المستعمرين أصلاً في الأرض، وأعلى فرعاً في السماء، وأكرم نفساً، وأشرف عنصرا، وأنقى جوهرا، وأنها إذا أفقرت الأيام الغني، وأذلت العزيز، فإن الفلك دوار والدهر دولاب..».

ويقول: يا خجلتاه غداً من كتاب التاريخ إذا جاؤوا يترجمون لأديب فيقولون : لقد رأى أعظم بطولات بدت من بشر، وشاهد أجل الأحداث التي رآها الناس، ثم لم يكتب حرفاً، لقد شغلته عنها شواغل الأيام، ومباهج الأحلام، وملذات الغرام»[٦].

لقد عاصر الطنطاوي تحولات خطيرة كان لها أكبر الأثر ليس على عالمنا العربي والإسلامي فقط، بل على العالم بأسره، لقد كان شاهد عيان على قيام دول وتشييد

امبراطوريات، كما كان شاهد عيان على انهيارها، وكذلك رأى تساقط الدول العربية والإسلامية واحدة تلو الأخرى في قبضة الاستعمار، وعاش بنفسه آلام هذه الفترة وآمالها حتى عاين تحررها واحدة تلو الأخرى.

وكان الغزاة عندما نزلت جيوشهم، لم تنزل فقط بأسلحة وعتاد، وإنما نزلت بأفكار ونظريات، فلما يئست طائفة من مقاومة سلاح العدو استسلمت لأفكاره، فظهرت في البلاد دعوات عميلة وأفكار مريضة تصدى لها الأدباء الإسلاميون والمفكرون ومن بينهم الطنطاوي، فكشف اللثام عن هذه الدعوات وأبان عوراتها وفضح زيفها، كالدعوة إلى القومية العربية التي يريد أصحابها أن يجردوا العروبة من إسلامها، والبلاد من عروبتها والعباد من لغتهم وتراثهم بل وقرآنهم.

وقف الطنطاوي لهذه الدعوات بالمرصاد فكانت مقالاته صرخات حركت وجدان الأمة في فترة كانت الشعوب أحوج ما تكون إليه .. وهذا هو دور الأديب.

ولم تغفل مؤلفات الطنطاوي القضية الفلسطينية وكان همه أن يشحذ النفوس نحو قضية العصر وقضية الأمة وهو يثير الناس، ويذكرهم بجرائم الصهاينة في فلسطين دائما، ففي كل شبر من فلسطين بقعة حمراء من أثر الدم الزكي، دم الشهداء الذين سقطوا صرعى دفاعاً عن بيوتهم وقريتهم وعن شرفهم وعن دينهم، ودم النساء والأطفال الذين ذبحهم اليهود»[٧].

لقد وقف قلم علي الطنطاوي الأديب الإسلامي موقفاً مشرفاً في الذود عن أمته العربية الإسلامية ضد الأخطار التي أحاطت بها طيلة قرن من الزمان، تلك الأخطار التي تمثلت في أزمته بين كيد الخارج وضعف الداخل، في وقت نكست فيه الرؤوس، فمضى كثير من المتأدبين يلهثون وراء أوروبا وأفكارها المنحلة.

مع آرائه النقدية :

الالتزام هو السمة الرئيسة في إنتاج علي الطنطاوي الفكري بجانبيه الإبداعي والنقدي، لذلك كان يقف الطنطاوي بالمرصاد لكل من سولت له نفسه من الأدباء خرق هذا الالتزام، مثل دعاة نظرية الفن للفن، فيرد على أحد أساتذة كلية الآداب الذي صرح في محاضراته بأنه ما ينبغي للأدب إلا أن يكون ألهية يتلهى بها العقل، فيرد الطنطاوي قائلا: «الأديب في الأمة لسانها الناطق بمحاسنها، الذائد عن حماها، وقائدها في مواطن فخرها، وذرى مجدها، فهو ذخر لها لا يعدله ذخر، وقصيدة أو مقالة تحررها أنملة أديب بليغ، مؤمن بما يقول، مخلص لما يدعو إليه، أنفع للأمة المظلومة، وأعون على نيلها حقها، من مئة كمي مدجج بالسلاح»..

«الأدب المنتج هو الذي يخدم القضية الوطنية الكبرى، ويربط ماضي الأمة بحاضرها ويعينها على النجاح في مستقبلها فإن كان هذا وإلا فسلام على أدب لا يقصد منه إلا التلهي واللذة، وسلام على أصحابه المخلصين العاملين!! واحذريهم أيتها الأمة فهم أعداؤك قبل أعدائك»[٨].

وكان هجوم الطنطاوي معروفاً على الشيخ أمين الخولي، حيث كان الثاني مشرفاً على رسالة دكتوراة موضوعها «القصص في القرآن» حاول صاحبها دراسة القصص القرآني كعمل فني يقبل النقد.

وفي شهر مارس ١٩٤٦م من مجلة الرسالة كتب الطنطاوي عن نزار قباني حين أصدر ديوانه الأول «قالت لي السمراء» قائلا: «طبع في دمشق كتاب صغير زاهي الغلاف ناعمه، ملفوف بالورق الشفاف الذي تلف به علب الشكولاته في الأعراس، معقود عليه شريط أحمر كالذي أوجب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه في خصور بعضهن ليعرفن به، فيه كلام مطبوع على صفة الشعر، فيه أشطار طولها واحد إذا قستها بالسنتيمترات..

«ويشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق القارح والبغي المتمرسة الوقحة وصفاً واقعياً، لا خيال فيه، لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مدلل غني، عزيز على أبويه، وهو طالب في مدرسة، وقد قرأ كتابه الطلاب في مدارسهم والطالبات».

«وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض، يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو، لأن الناس قد ملوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه، فلم يكن بد من التجديد»[٩].

وهكذا سخر الطنطاوي قلمه الساخر لمحاربة كل ماهو مرذول في الحياة الأدبية، وكانت آراؤه النقدية في الأدب واللغة تصدر دائماً عن حس فني إسلامي، بلغ في التزامه مبلغ الريادة.

زكي مبارك

وكان من أبرز ما يميز علي الطنطاوي عشقه اللغة العربية، ودعواته الدائمة للتمسك بها، حيث كان يرى أن بقاء الأمم في بقاء لغاتها، وكانت له آراؤه في تيسير تعليم النحو وضرورة ذلك، لأن كتب النحو أتخمت بما لا يفيد من فلسفات لا طائل من ورائها، وأعلن غير مرة الحرب على من ينادون بتنحية اللغة العربية وإحلال العامية مكانها، وهو يسخر من الداعية إلى العامية بقوله: «وعندئذ يكون «شكوكو» أمير الشعراء الذين ندرس آثارهم في الجامعة، و«إسماعيل ياسين» من أمراء النثر، ويكون من تعبيرات النقد الجديدة أن نقول للكاتب المعقد الذي لا يفهم «إنه يكتب بالعربي» كما يقال في أوروبة عن الكاتب الفرنسي المحدث إذا أغرب وعقد: إنه يكتب باللاتيني»[١٠].

ولم يكن رفض الطنطاوي للعبث في اللغة، وتمسكه بالتراث يعني أنه لا يقبل التطور في أساليب الكتاب والأدباء، بل كان يرحب بذلك في إطار الالتزام بقواعد اللغة، فهو يعجبه ميخائيل نعيمة وأسلوبه الجديد، إلا أنه لا يرتضي تجاوزاته في حق اللغة وقواعدها، ويقول: «وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفس عربي فيكون نادرة الأساليب ومفخرة الأدب».

كذلك لم يكن ليشفع للتراث أنه تراث إذا خالف الالتزام الذي كان ينشده الطنطاوي، فعلى الرغم من إعجابه الشديد بقصيدة أبي فراس الحمداني أراك عصي الدمع» فإنه يرفض قوله: «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر» فيقول: «انظروا كم بين قوله هذا وبين قول المعري:

فلا نزلت عليَّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

أبو فراس ينحط إلى أدنى دركات الأثرة والأنانية، لا يرتفع درجة فيهتم بأهل أو ولد، ولا يرتفع درجة أخرى فيهتم ببلد أو وطن، إنه لا يبالي إلا بنفسه، فإذا مات عطشاناً فلينقطع المطر وليحترق الزرع، ولتقفر الأرض، وليعم القحط، وليهلك القريب والبعيد، والصديق والعدو، ولا يبقى أحد.

والمعري يرتفع إلى أعلى درجات الإيثار فلا يرضى أن ينزل المطر عليه ولا على أرضه، لا يرتضي إلا غيثا عاماً يشمل خيره البلاد والعباد..[١١].

وأخيرا ..

فإن هذه أمثلة من مئات، وأسطر من مقالات، وهي وإن أشارت إلى أدب هذا الشيخ فإنها لا توفيه حقه.

ومن ذا الذي يستطيع أن يتحدث عن علي الطنطاوي أفضل من علي الطنطاوي؟! وهل ترك الطنطاوي عن نفسه شيئاً لم يقله؟! ومن يقدر أن يكتب عن الطنطاوي ألفين وخمسمئة صفحة كتبها هو في ذكرياته؟!

إن حديث الطنطاوي طوال سبعين سنة قضاها كتابة وخطابة لم يكن سوى حديث عن نفسه، ولقد اعتذر ذات مرة إلى قرائه لأنه دائم الحديث عن نفسه، بأن الأديب لا يملك إلا هذا النوع من الحديث.. حديث النفس.. لكنه كان يقول: «أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفس، وحين أصف شعور واحد وعواطفه أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم، كصاحب التشريح لا يشق الصدور جميعاً ليعرف مكان القلب وصفته، ولكنه يشق الصدر والصدرين، ثم يقعد القاعدة ويؤصل الأصل.. فلا يشذ عنه إنسان[١٢]..

لذا كان آثار الطنطاوي حديثاً عن قرن من الزمان عاش فيه الطنطاوي، لا حديثاً عن علي الطنطاوي الذي عاش في ذلك القرن من الزمان فكان مرآة صادقة للأدب العربي والإسلامي.

مرآة مستوية في عصر كثرت فيه المرايا المحدبة والمقعرة.. رحم الله الشيخ علي الطنطاوي. ■

المازني

الهوامش:

١- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ص ١٨١.
٢- محمد وقيع الله، علي الطنطاوي فارس البيان الملتزم، مجلة الإصلاح العدد ٣٤٤ - ١٤/٥/١٩٩٦م، ص ٤٨.
٣- مجاهد مأمون ديرانية، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص ٨٣، ٨٤.
٤- علي الطنطاوي، قصص من التاريخ، ص ١٠.
٥- نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص ١٠٣.
٦- علي الطنطاوي، في سبيل الإصلاح، ص ١٧، ٢١.
٧- علي الطنطاوي، هتاف المجد، ص ٦٥.
٨- علي الطنطاوي، الأدب القومي، ص٥ وما بعدها «سنة ١٩٣٠م».
٩- نزار قباني، قصته مع الشعر، ص ٨٨، ٨٩.
١٠- علي الطنطاوي، في سبيل الإصلاح، ص ١٦٦.
١١- علي الطنطاوي «جمع مجاهد» مقالات في كلمات «٣»، ص ٢٣٠.
١٢- علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص ١٧.